انتحار المفارقة ومصرع السخرية:

هل صمم مارك سايكس علم العرب؟

عوني الجيوسي*

■ قرابة تسعين عاماً تكاد تمضي على رفع راية الثورة العربية في الحجاز. من يا ترى أمسك القلم لأول مرة ليختصر العرب بمثلث وثلاثة مستطيلات، ويجترح تجريداً لوجودهم بأربعة ألوان هي الأحمر والأسود والأخضر والأبيض؟ هذه الراية التي توحي ـ للوهلة الأولى ـ وكأن أكثر الرايات العربية تناسلت عنها، وبأنها تركت فيهم جميعاً لمستها الوراثية، اما بتضاريس خطوطها أو بمزيجها اللوني. ولغاية اليوم، لا تزال هذه الراية، بشكلها الأصلي الدقيق، تخفق في مدينة العقبة الأردنية، وهي تذكر بأولى الفضاءات التي اقتحمها ذلك العلم. ولا يزال العلم الفلسطيني بالغ الوفاء لتلك الراية القديمة لولا انقلاب في تراتب الأبيض والأخضر، ومثله العلم الأردني، باضافة النجمة الفيصلية البيضاء. فمن يا ترى صمم ذلك العلم؟

خلال طفولة يُكنى عن جهلها المستبد بالبراءة، كنا نظن بأن شاعرا يدعى صفي الدين أسس لميلاد هذا العلم من دون أن يدري عندما أنشد بيته الشوفيني الشهير عن صنائعنا البيضاء ومرابعنا الخضراء ووقائعنا السوداء ومواضينا المضرجة بالحمرة. وكم وقفنا وكم هتفنا أمام سارية هذا العلم، وكم تمكنت من نفوسنا هندسته وألوانه وحتى ظله على الأرض. ورويداً رويداً، كانت الحقيقة الباردة التي لا تتسع للشعر ولا للشعراء تزحف على مساحات الجهالة، وتنزع عن صفي الدين الحلي لقب العراب المجازي لهذا العلم، لتُسكن مكانه شخصاً آخر تماماً. فمن يكون هذا الشخص؟ ومن أين أتى بهذه الراية؟

في غرفة ما بجنوب غرب لندن، وداخل مبنى هو اليوم مقر المدعي العام البريطاني، كان السير مارك سايكس يسارع بطباعة رسالة ما في الثاني والعشرين من شباط (فبراير) عام 1917. هذه الرسالة موجودة اليوم لدى أكثر من جهة، منها ـ مثلاً لا حصراً ـ الأرشيف الوطني البريطاني بلندن، ومركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة أوكسفورد، والأرشيف المكتبي لجامعة هل بشمال انكلترا، ومجموعة وثائق سلديمير الخاصة بأرشيف عائلة سايكس.

ماذا كتب هذا الشاب الانكليزي، ابن السابعة والثلاثين عاما في رسالة وجهتها القاهرة، وموضوعها الحجاز، ومنشؤها لندن؟ «أكتب اليك على عجل شديد، فالكيس يخرج في الرابعة من بعد ظهر اليوم (كيس البريد)»، كتب سايكس في فاتحة رسالته العاجلة. لكن القصة تبدأ قبل ذلك بشهور عدة.

في العاشر من حزيران (يونيو) لعام 1916 بدأ التحرك المعروف بالثورة العربية الكبرى، وكانت الراية التي يرفعها الهاشميون حتى تلك اللحظة الراية الشريفية، المقصورة على اللون الأحمر الداكن وحده، رمز الحجازيين. ومع اقتراب الذكرى الأولى لانطلاق الثورة، طالعت صحيفة القبلة، الصادرة في مكة، طالعت قراءها بخبر يبشر بميلاد علم للعرب، ليكون احتفائية رمزية بسنوية الثورة الأولى. كان هذا في عام 1917، وبالتحديد في أوائل شهر حزيران (يونيو)، وكان العلم الوليد، كما هو معلومٌ اليوم، مكوناً من مثلث أحمر في جانب ثلاثة مستطيلات متوازية تتواتر فيها الألوان هبوطاً من الأسود فالأخضر وصولاً الى الأبيض. وفي دراسته عن «تطور العلم العربي»، في طبعتها الثانية والصادرة عام 1986 في عمان، يقول الدكتور مهدي عبدالهادي بأنه وفي السنة الثانية للثورة «اتفق الحسين (بن علي) مع قادة الأحزاب العربية السرية على ألوان العلم القومي للدولة العربية المستقبلية وعمل بنفسه على تصميمها». لكن الدكتور عبدالهادي لا يوضح لنا مصدر معلوماته تلك، رغم ظني بأنه أخذ عن د. خيرية قاسمية في دراستها المبكرة عن «العلم الفلسطيني»، حيث تقول بأن الراحل صبحي أبو غنيمة كان قد أخبرها بأن كلاً من الشريف حسين بن علي والشيخ فؤاد الخطيب قد أخبراه بأنهما هما من قاما بوضع تصميم علم الثورة. (رغم أن قصة التصميم هذه لم ترد في مذكرات صبحي أبو غنيمة الصادرة بعد وفاته، والتي جمعتها ابنته د. هدى أبو غنيمة). قد يبدو الموضوع محسوما الى هنا لولا أن شين ليزلي، وعلى الضفة التأريخية الأخرى، سجل في كتاب له عن سيرة شخصية انكليزية لامعة اشارة عارضة بأن منشأ العلم انكليزي. وكانت د. خيرية قاسمية قد تنبهت لهذه الاشارة في دراستها الآنفة الذكر وارتأت بأن الاجابة التي استخلصتها من صبحي أبوغنيمة، بالاضافة لخبر نقلته صحيفة القبلة عن احتفال العرب في الحجاز بصدور العلم، ارتأت في هذين الشاهدين دليل نفي لرواية ليزلي، ودحضاً لزعمه بأن العلم العربي من غير صنع العرب. لكن، لم يكن شين ليزلي وحده من خرج بهذا الادعاء، فعلى ذات المزمار عزف غودفري لياس في كتابه عن نشأة الجيش العربي والمعنون «جيش غلوب»، اذ ذكر مروراً في فاتحة اقتباس عن مارك سايكس بأن هذا الأخير «قد صمم العلم الذي دخل تحته الأمير فيصل ولورنس الى دمشق خلال الحرب العالمية الأولى».

لكن من دون أن يشير بأي درجة من الوضوح الى المصدر الذي استقى منه هذه الواقعة المزعومة. وتبعه على نفس المنوال ديفيد فروميكن في عمله القدير «سلامٌ لهدم كل سلام»، قائلاً بأن مارك سايكس هو من صمم علم الثورة العربية، بل وبأن المصانع الحربية البريطانية في مصر هي من قامت بطباعته وتوزيعه. فما قصة هذا الخلاف، ومن الذي صمم حقاً تلك الراية؟

ان اجابة هذا السؤال تقع حتما ما بين الحزيرانين المتتالين لعامي 1916 و1917، في الفضاء الفاصل ما بين بدء الثورة واعلان القبلة عن تصميم العلم العربي. مرة أخرى نجد أنفسنا في رواق في الخارجية البريطانية، في الثاني والعشرين من شباط (فبراير) عام 1917. كانت الرسالة التي يخطها سايكس موجهة الى المفوض الأعلى الجديد في مصر، ريجينالد وينغيت، والذي خلف هنري ماكماهون في ذات المنصب. يفتتح سايكس رسالته بحديث عام عن المهام الجديدة التي أوكلت اليه قبل أن يشرع بتفصيل نقاط أربعة، ثالثها هو ما يعنينا في هذا المقام، اذ كتّب فيها التالي:

«انني لأرى وبشدة أن اللجنة العربية بالقاهرة تحسن صنعاً ان صممت واستقرت على علمٍ أو شارة ما يتم رفعها كلما رفع العلم الفرنسي في المناطق (أ) و(ب).

لا ينبغي لهذا العلم أن يكون مطابقا لعلم الشريف، بل يجب أن يوحي بفدرالية عربية ويكون في الوسع تسميته بعلم العرب المتحدين. ان لم يكن من مقترح أفضل، فاني أرفق طياً بعض الرسوم. الألوان تمثل الممالك العربية، العباسية بالأسود، الأموية بالأبيض، العلوية بالأخضر، والشريف ومعظم شيوخ جنوب شرق الجزيرة بالأحمر. أنا أقدم هذه كاقتراحات وحسب، ولكن ينبغي أن يكون لديهم شيء ما، وسيكون من المحبذ أن لا يكون شريفياً خالصاً.» والرسوم المشار اليها هي أربعة، مرفقة مع هذا المقال، وبالامكان التعرف على آخرها مباشرة لأنه العلم الذي اختير في نهاية المطاف. وقد أورد بروس ويستريت صورة هذه التصاميم في كتابه «المكتب العربي: سياسة بريطانيا في الشرق الأوسط من 1916 الى 1920 الصادر عام 1992، ولكن من دون ايراد الرسالة التي حوتها. ولست أرى درهم عجرفة في الزعم الصريح بأن الروايات الشفوية التي نقلتها قاسمية قد سقطت الآن بالضربة الوثائقية القاضية. ودرءاً لشبهة تشابه الأسماء، ولأن آل سايكس الكرام يملكون أكثر من مارك واحد، فلا بد من تأكيد شك القارئ في حال لَم يبلغ شكه مبلغ اليقين، والقول بالفم الملآن خيبة، والفكين المنهكين حسرة: نعم، انه ذات المارك سايكس الذي رسم مع نظيره الفرنسي، جورج بيكو، كاريكاتير الشرق الأوسط المعاصر، وهو ذات المارك سايكس الذي يطل عليك وعلي في كل نقطة حدودية بين بلدين عربيين متجاورين، تكاد تراه يتبسم لك ـ وسط وجوه الضباط العابسة ـ وهو يرى صدى خريطته الشهيرة يدوي بعد قرابة القرن، وقد اكتسبت أبعادها قدراً من القداسة، وصار الموت دفاعاً عنها ضرباً فريداً من الاستشهاد. هنا تموت كل المفارقات، وتستل السخرية مدفعاً رشاشاً لتفرغ ألف رصاصة في رأسها، ويخلع التهكم بنطاله قبل قبعته اجلالاً وتعظيماً لكوميديا العلم العربي التي قزمت مسرح برناردشو، وسخفت أوسكار وايلد، وقضت على ارث توين. فها هي الأمة التي لا تزال الأمم تصطف على أبواب مساجدها القرطبية، ومآذنها الدمشقية، وقبابها المقدسية، لتتأمل عبقرية المعمار وفلسفة الجمال عند الناطقين بالفصحى والشاهدين بلا إله الا الله، ها هي تأخذ تصميم خرقتها الوطنية من بارون آل سايكس السادس، ابن السابعة والثلاثين، الذي ختم رسالته الى وينغيت بعبارة هي المعادل الموضوعي لفعل التفل في وجوه العرب جميعاً: «لقد اضطرتني الساعة لأتوقف عن الكتابة وأرجو أن تغفر لي هذه الخربشة السريعة.... أعتذر بشدة عن الطبيعة العجولة لهذه الرسالة لكنني لم أملك أكثر من خمس وعشرين دقيقة لانجازها، بما فيها الرسوم».

لماذا الآن وأي نفع يُرتجى؟ سؤال وجيه أقصر اجابته في العلم الفلسطيني وحده، رغم أنه ليس العلم الوحيد الذي يستيقظ اليوم ليكتشف لنفسه أباً جديداً بعد ظهور نتائج التحليل التاريخي لحمضه النووي، وبطلان نسبه القاطع لكل لاهج فصيح بالضاد.

ان ترددي بكتابة هذا المقال رغم اكتمال مادته قبل عدة أشهر كان له أكثر من مرد، أوله تلك الجائزة البرزانية التي وضعها رئيس الحزب الديمقراطي الكردستاني على رأس العلم العراقي، اذ لم يكن بودي أن أقدم ذخيرة ـ مطاطية ـ لشحاذي جائزة برزان، ذات الخمسة آلاف دولار، رغم ايماني التام بأن كل ما قدمته في موضوع العلم هو شهادة حق لصالح العلم العراقي لا عليه، فهو ـ أي علم العراق ـ أقرب في تصميمه لعلم الجمعية العربية الفتاة المصمم عام 1914، والذي لا يشتمل على مثلث سايكس الأحمر، بل يكتفي بثلاث قطاعات مستطيلة تتوالى فيها الألوان هبوطاً من الأخضر مروراً بالأبيض ووصولاً الى الأسود. والسبب الثاني لترددي، وهو الأهم، فمتعلق بكل أولئك الشهداء الذين سُجوا بعلم لم يخطر ببالهم يوماً أنه من ابتداع مخبر بريطاني أبى الا أن يضاعف من شحنة الاهانة ويرفعها لأس فلكي، فوضع تصميمه على عجل وبعث به من لندن الى مكتب استخباري بالقاهرة.

ان ترددي يتعلق أيضاً بذلك الشاب الذي كان يراقص الرصاص وهو يرفع علمه الوطني على قبة مسجد، أو عمود كهرباء، أو سياج مستوطنة. ان ترددي يتعلق بستين عاماً من الثورة المظللة بتلك الألوان الأربعة، وطابور تحية العلم الذي كان يصطف أمامه طلاب المخيمات، ونزلاء المعتقلات، وأبطال المؤبدات المكررة. نعم، ان الرموز تتحدد بالدلالات التي يتواضع عليها الناس، لكن ثقل الحقيقة التاريخية قد يكون أفدح من أي توافق وأغلب من كل اجماع، وقد لا تكفي كل هذه الجثامين، ولا كل تلك الشجاعة حتى يتغير أصل هذا العلم الذي لم يكن يعرف بحقيقته سوى دائرة بالغة الضيق من القيمين على الثورة العربية. ومن المؤسف أن يعلم المرء بأن علماً آخر كان يستخدم في فلسطين أيام النكبة وما تلاها، ذكرته د. خيرية قاسمية في كتابها عن العلم، يتألف من خلفية بيضاء كُتب عليها اسم فلسطين باللون الأحمر، الا أن استخدامه لم يدم طويلاً خصوصاً بعد أن اعتمد علم الثورة العربية علماً للدولة بقرار من حكومة عموم فلسطين وقتها.

ان حصري لهذا النداء بالعلم الفلسطيني يتعلق بأسباب بعضها شخصي، ولكنه يتعلق بأسباب أعم أيضاً، منها أن حقيقة أصل هذا العلم هي فضيحة للقطرية العربية بمجملها، وشاهد حق على كرتونية هذه التقسيمات السياسية والجغرافية المفبركة. وعليه، فاني غير معني بأعلام عربية أخرى ينحدر أصلها المباشر من علم البارون السادس، السير سايكس. لكن الفكرة الفلسطينية لليوم لا تزال فكرة تحررية وثورية، وهي جديرة بهذا المعنى، وشهداؤها معها، بعلم خير من هذا، لم يرسمه ضابط مخابرات، ولم يخترعه المنتدب المستعمر، ولم يُصمم في غرفة قصية بلندن، ولا اضطر صاحبه لتلفيقه في خمس وعشرين دقيقة حتى يدرك «الكيس» الذي «يخرج في الرابعة». وليس في تغيير العلم الفلسطيني اليوم تخلصاً من قرابة شائنة مع السير سايكس وحسب، بل وتحرراً من مرحلة تاريخية بأكملها، مهدت لتمزيق المنطقة العربية، وأدخلت الانكليز والفرنسيين اليها من أوسع الأبواب، تحت ذريعة اخراج الأتراك من النافذة. ولربما آن لأطفالنا أن يرتاحوا من تحية علمٍ يمضون نصف يومهم في شتم مخترعه، ونصفه الآخر في مقارعة المأساة التي أنزلها بهم.

* كاتب من فلسطين

هامش الأسماء الانكليزية حسب ورودها:
Mark Sykes, Reginald Wingate, Shane Leslie, Godfrey Lias, David Fromkin, Bruce Westrate

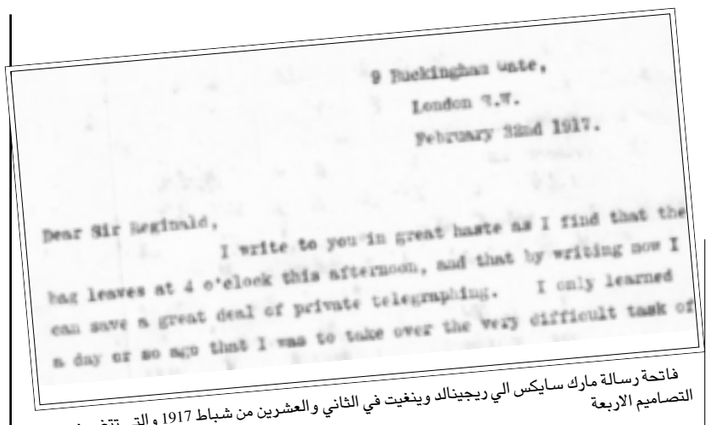

9 Buckingham Gate,
London S.W.
February 22nd 1917.

Dear Sir Reginald,
I write to you in great haste as I find that the bag leaves at 4 o'clock this afternoon, and that by writing now I can save a great deal of private telegraphing. I only learned a day or so ago that I was to take over the very difficult task of

فاتحة رسالة مارك سايكس الي ريجينالد وينغيت في الثاني والعشرين من شباط 1917 والتي تتضمن التصاميم الاربعة

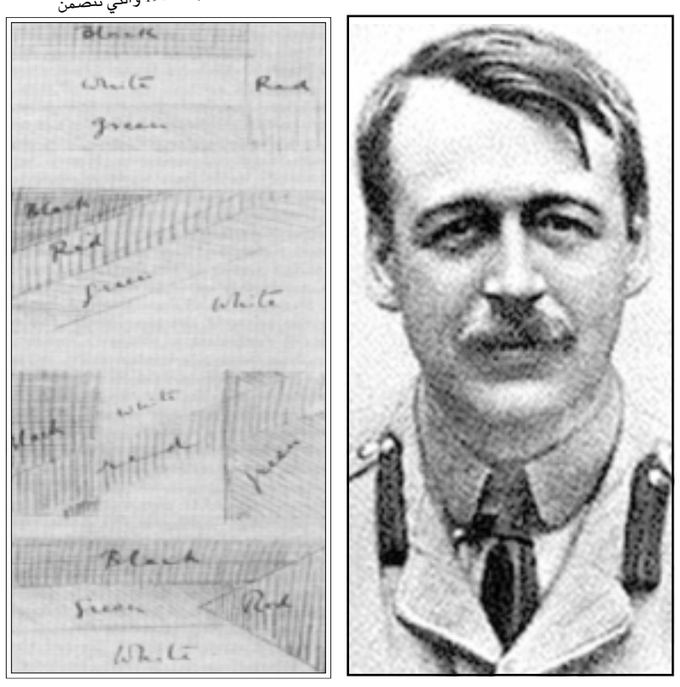

تصاميم مارك سايكس المقترحة للعلم العربي مع ملاحظة ان التصميم السفلي هو الذي وقع عليه الاختيار

فضاءات ثقافية

«طنجة الأدبية» الجريدة الثقافية المغربية لكل العرب الآن في مصر والبحرين

القاهرة ـ «القدس العربي»:

حققت جريدة طنجة الأدبية لنفسها ولادة وبداية جديدة في مشوارها الثقافي الذي بدأته منذ أكثر من سنتين، حيث حصلت على بعد وامتداد عربي باقدامها على توزيع اصدارها الأخير في مصر والبحرين. وتتكون هيئة التحرير من مجموعة من أدباء المغرب الشباب الذين جمعهم طموحهم ومحبتهم لعالم الأدب على مشروع عصامي متميز محاولين فيه خلق منبر ثقافي أدبي جديد يحفل بالجيد من أجناس الكتابة المختلفة.

وفي كلمة لمديرها، الشاعر عبد السلام بن ادريس، كتب في ناصية القول: «لسنا من هواة رفع الشعارات ولم تكن طنجة الأدبية لتشير الى نفسها بالجريدة الثقافية لكل العرب، لولا يقيننا أننا بذلك سنساهم في صنع غد عربي بواقع ثقافي أفضل حالا».

وبالفعل، فقد استطاعت الجريدة ومنذ أعدادها الأولى استقطاب العديد من الكتاب والمبدعين العرب على اختلاف انتماءاتهم وتوجهاتهم، لتمد بذلك ـ كما يؤكد مدير نشرها دائما ـ جسور تواصل معرفية متينة بين مختلف الفنون والثقافات العربية.

وقد جاء هذا الاصدار العشرون زاخرا بمواد غنية تنوعت بين الدراسة والمقال والمسرح والسينما والترجمة والشعر والقصة. وفيه كتب د. سمير برهون من المغرب عن موقف ابن حزم من الخطاب الشعري، وعالج د.محمد دخاي من المغرب كتابة الغياب وسيميائية الأنثى المستعادة في رواية شفرة دافنشي، وكتبت المصرية فاطمة ناعوت شهادة مطولة وحميمية عن الراحل نجيب محفوظ أو «فرعون مصر العظيم» كما سمته الكاتبة.

في الابداع مساهمات لكل من غالية خوجة من الامارات وعلي الجلاوي من البحرين ويزيد الديراوي من فلسطين ومبارك بدر عطية من تونس، اضافة الى أسماء تمثل المشهد الشعري والقصصي الراهن في المغرب. وقد أغنى هذا العدد ملف خاص عن رائد الاحتفالية في المسرح العربي د.عبد الكريم برشيد أعده محمد أهواري، شارك فيه صفوة من المختصين في المسرح ـ د. مصطفى الرمضاني ود.جميل الحمداوي ود.محمد الوادي وأ. مولود القنبي.

كما جمع العدد بين طياته حوارا مع الشاعر المغربي الكبير محمد علي الرباوي والشاعرة الفرنسية ليزا كليكمان ميزراكي، اضافة الى الأعمدة الثابتة والمقالات.

«في سببية وجدلية العمارة» لرفعة الجادرجي

بيروت ـ «القدس العربي»:

صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية يوم الاربعاء 4 تشرين الاول (اكتوبر) 2006 كتاب «في سببية وجدلية العمارة» للاستاذ رفعة الجادرجي.

قليلة جدا في الثقافة العربية المعاصرة، هي الابحاث التي تدرس العمارة بأبعد من ظاهر تشكيلاتها الهندسية فتخوض في الابعاد الثقافية والاجتماعية والجمالية والفلسفية لتكشف عن مفهوم لبنيوية العمارة يبلور هذه الابعاد ويجلوها في صيغة نظرية/عملية متكاملة.

الاستاذ رفعة الجادرجي هو في طليعة من يرفدون المكتبة العربية بمثل هذه الابحاث، وكتابه الجديد: «في سببية وجدلية العمارة» يحقق اضافة نوعية كبيرة في هذا الميدان، تأتي لتزيد من إثراء ما قدمه منذ عام 1985 حتى اليوم.

رفعة الجادرجي

معمار، ومنظر، وكاتب/مواليد بغداد 1926/12/6.

● مؤسس ومدير المكتب الاستشاري العراقي 1952 ـ 1978.

● تبوأ مراكز ادارية عديدة: في هندسة الاوقاف وفي وزارتي التخطيط والاسكان في العراق بين 1958 و1980.

● استاذ زائر في جامعة هارفرد، وزميل Loeb في الجامعة نفسها بين 1983 و1986.

● حائز الجائزة البرونزية للمعرض الدولي للأثاث ـ برشلونة 1964، وجائزة الرئيس لمؤسسة آغا خان للعمارة 1986، وعضو فخري في الجمعية الملكية البريطانية للمعماريين منذ 1982، وفي المعهد الامريكي للمعماريين منذ 1987. من مؤلفاته:

ـ صورة أب (1985)
ـ شارع طه وهامر سمث (1985)
ـ حوار في بنيوية الفن والعمارة (1995)
ـ المسؤولية الاجتماعية لدور المعمار (1999)
ـ المقدمة لمذكرات كامل الجادرجي وتاريخ الحزب الوطني الديمقراطي (2002)
ـ جدار بين ظلمتين (2003)

يقع الكتاب في 398 صفحة.

عدد جديد من دورية «نساء» هيفاء وهبي ليست المرأة اللبنانية وملف عن السعار الجنسي

القاهرة ـ «القدس العربي»
ـ من احمد القاعود:

عن واقعة التحرش الجنسي التي شهدتها منطقة وسط القاهرة ثاني أيام عيد الفطر المبارك تناول العدد الجديد من دورية «نساء» الصادرة عن المركز المصري لحقوق المرأة، والذي تترأسه المحامية نهاد ابو القمصان هذه الظاهرة، حيث جاء ملف العدد بعنوان «الاعتداء الصامت» وبدأ بدراسة عن اشكال التحرش واسبابه، ووجدت الدراسة التي اجراها المركز ان التحرش بالنساء لم يعد قاصرا على الاماكن العامة مثل المواصلات والشوارع ولكنه ظهر في اماكن غير تقليدية مثل الحرم الجامعي، كما ان التحرش تعدى حدود العلاقة بين الاقوى والاضعف واصبحت المحجبات هن الاكثر تعرضا لهذا التحرش وكذلك كبيرات السن.

وطالبت الكاتبة منى حلمي بمحاربة الثقافة الذكورية السائدة في المجتمع، وكتبت تحت عنوان «اقتلوا الثقافة الذكورية يختفي التحرش» ان التحرش الجنسي بالمرأة هو احد الاعمدة الاساسية التي ترتكز عليها الثقافة الذكورية، وان بقاء التحرش مرهون ببقاء هذه الثقافة التي وصفتها بانها تسمم حياة واجساد واحلام النساء.

وفي حوار مع الطبيب النفسي د، هاشم بحري، ارجع سبب التحرش الى الاشخاص الذين يعانون من اضطرابات جنسية في فترة طفولتهم، وقد يكونوا تعرضوا للاعتداء الجنسي ايضا وعندما يكبرون يحاولون نقل الفعل للمجتمع.

وتناول العدد في ملف خاص حول المرأة العربية «النساء والمقاومة».

وبدأته الكاتبة اللبنانية غادة علي كلش بتسجيل لبطولات المرأة اللبنانية ودورها في المقاومة والحرب وضربت عدة امثال لشخصيات نسائية لبنانية كان لهن الدور في المقاومة ضد العدو الاسرائيلي، فتحت عنوان «هيفاء وهبي ليست المرأة اللبنانية» ذكرت الكاتبة ان المرأة اللبنانية حفرت بصماتها بعيدا عن الارتهان للقشور وللاشكال المزيفة والادوار المائعة وكان للكاتبات اللبنانيات دور كبير في الكتابة عن المعارك، وتسجيل التجارب في اتون النار وترى ان المرأة اللبنانية خرجت في الحرب الاخيرة وهي تقول لا مكان للخوف بعد اليوم على ارض لبنان. لا لمكان الا لبنان.

وتحاول بعدها الكاتبة نوارة نجم وصف التكوين الثقافي والنفسي للمراة المقاومة وترتبط بين الحياة ورفض الذل.

ويختتم ملف المراة العربية بالانتخابات اليمنية الاخيرة وهزيمة المرأة فيها، فالثقافة القبلية ما زالت مسيطرة على الاحزاب السياسية التي اخرت بدورها مكاسب المرأة في اليمن.

وتناول العدد عدة موضوعات اخرى حول المخرجات الشابات وختان النساء في افريقيا.

تداعيات

رسالة في زجاجة

عبد الله ونوس*

(الى أكرم قطريب)

-1-

الهاجسُ الأخيرُ لرجل خلف بحر، صدُّ الريح بكفين مفتوحتين ... بأحلام مطوية كالغسيّل، وحنين بارد كحديد سياج ليلة عيد الميلاد، سيشعلُ سراجَ كولمبوس على مقدّمة آيابه، بلّا ذهبٍ سيعودْ، وبلا اكتشافات هامّة تُـذكَر، الاّ ذاك النمش المتـناثر ـ كبيّوت في سهل ثلج ـ بين كتّفي امرأة لم يزل في يدها مقبض باب مدينة «اسبارطة»، وبقايا انكليزيتها التي تنطقها بأصابعها، وتنوس انكساراتها على شفتيها ..؟

السنوات الخمس لم تكفه ليعود بعصا بيسبول طويلة يضعها في منتصف حقيبة الكتف ... ولا ليجلسَ قدام تمثال شكسبير، ويقول للعابرين: ـ أنا شاعرٌ ـ بقدمين مفتوحتين كنصب، رجلي الأولى هنا، والأخرى هناك .. خلف بحر .. في غرفة تحت درج !!

الرجلُ ذو الملامح العائدة الى الوراء، كخطوات جنود منهزمين، سيعودُ طفلاً من وراء بحر، وكما في أفلام الخيال العلمي، لن يجدَ من يعرفهُ أو يتعرّف عليه ... ولن تكفيه أصابعُ سكّان قارة ليعدّ عليها غياب أصدقائه.

-2-

الآن يا هذا ... ستتفحّص راحة كفّك جيّداً، باحثاً فيها عن طريق المدرسة الطويل، عن زجاجات خمر غرقة ـ دُمّر ـ الملفوفة بعناية بصحف لا يقرؤها أحد، عن تشاؤب الحرِّ المتروك على طاولات الروضةً ...، وعن صخب الليل بعدَ ثلاث زجاجات بيرة في المشرب ذي الطاولات الحجرية تكفيكَ للطيران ولاختراق جدار الضحك فوق سماء البلدة التي سقطت سهواً من حسابات الله الأنتربولوجية ..!

الآن ... ستركنُ هادئاً في لوحات أصدقائك المتروكة هناك، على الجدران، ربّما ستكون تفاحةً حزينةً على طاولة، أو أريكة طويلة فارغة، أو حتّى زاوية معتمة في العُمق، أو ربّما اطاراً صامتاً وبارداً كالعودة وحيداً الى البيت ... حينها سنراك ملوناً وحاراً، بسيلان فرشاة أو بقسوة سكين، بمسحة ابهام أو بعبث مزج ... وحيداً ستشعلُ سراج كولمبوس على سارية ايابك، وبلا ذهب أو اكتشافات تُذكر، وليس في الحقيبة سوى القصائد التي ستجعلنا نكف عن رؤية بعضنا بالأسود والأسود ؟!! .

* كاتب من سورية

حين يصبح المبدع المتلقي الوحيد لنصوصه!

لطفي خلف *

■ لا تزال فئة غير قليلة من رواد الشعر العمودي التقليدي تمارس كتابة هذا اللون من الشعر على مستوى الوطن العربي، متيقنة تمام اليقين أنها بذلك لم تخرج عن أصول وقواعد كتابة الشعر منذ العصور الجاهلية الأولى، وهذه التجربة الشعرية اذا نظرنا لها بمنظار أصحاب التجربة الحداثية فانها تجربة قد أكل عليها عصر الحداثة وشرب، وان روّادها ما زالوا متقوقعين في حجرات أدواتهم الشعرية القديمة متشبّثين بشعراء المعلقات ودواوين الاقدمين وأشعارهم، منغلقين ومنزوين عن العالمية والحداثة والتطور والتفاعل مع كل ما هو عصري وجديد، وبعيدين عن متطلبات العصر، عاجزين عن مواكبته بأدواتهم الكتابية الصدئة، متلبسين بتهمة القديم ولا يخرجون عن حيّز عباءة التقليد ولو شبرا واحدا.

وعلى العكس من ذلك فاننا نرى أن رواد القصيدة العمودية ينحون باللائمة على رواد الحداثة وحتى على بعض شعراء التفعيلة ويتهمون نصوصهم الشعرية والمدعومة بالشرعية العالمية يتهمونها بالرمزية المغرضة والتلفع بالغموض والابتعاد عن الشريحة العريضة من القراء والمتلقين وذلك لعدم استطاعتهم تفكيك شيفرتها ورموزها من خلال السياق، رغم حضور الدلالات والاشارات والتي يوهم بها كاتب النص المتلقي حتى يحلل ويفكك تلك الألغاز المضنية ويغوص ليسبر أغوارها ويصل الى قاعدة الهرم العريضة لتلك النصوص حتى يجني متعة القراءة ويصل الى الهدف المنشود.

لكننا لو نظرنا نظرة موضوعية متفحصة بغرض اصدار حكم حيادي غير جائر لتوصلنا الى النتيجة التي تقول أن مجتمعنا العربي تنقصه أمور كثيرة منها اشكاليات وتعقيدات الانسان وفلسفة وتناقضات الحياة من جهة وانسلاخ المجتمع عن قراءة الأدب العالمي الحديث بألوانه المختلفة من جهة ثانية، فالقارئ في مجتمعاتنا العربية يتذوق النصوص العمودية التقليدية للشعر الى حد معين، في حين ينأى عن تذوّق أو حتى دراسة ما ينشر في التجربة الشعرية الحداثية ويتهمها بالغموض والابتعاد عن المفردات المستساغة، وأن صوره الشعرية متداخلة حتى لا يكاد القارئ يتلمّس بر الوضوح في الرؤيا بدلالة معينة حتى تدخل صورة أخرى أكثر تكثيفا من الأولى لتهيمن على سالفتها وتشوّش صفاء ذهنه ليغرق في بحر من الغموض ثانية، أما بالنسبة لشعر التفعيلة فبعض نصوصه واضحة الشكل والمضمون ولها تجربة ناضجة وصورها جلية مشوقة ضمن سياقات متسلسلة تشد المتلقي الى أعماقها تدريجيا، أما الجزء الاخر من بعض نصوص شعر التفعيلة فقد أوغل في الغموض وسار تحت لواء الحداثة والنثرية.

خلاصة القول ان النسبة الكبرى من القراء هم من أنصار الشعر العمودي ويلي ذلك أنصار شعر التفعيلة ولا أجزم ألا تكون هناك قلة قليلة تناصر التجربة الشعرية الحداثية، ولهذا فان قاعدة ضيقة من القراء هي في النهاية من تطالع وتتلقى فيما لو انتهج شعراؤنا التجربة الحداثية في الشعر، واننا نكون بذلك قد خسرنا جمهورا عريضا من القراء يسعى لأن ينسلخ تدريجيا عن اقتناء الدواوين الشعرية لنصل في نهاية المطاف الى أن الشاعر هو القارئ الوحيد لدواوين الشعر فهو المبدع والمتلقي في آن واحد.

* شاعر وكاتب فلسطيني